

ميلاد العصور الوسطى
تأليف
ه. موس
ترجمه : عبد العزيز توفيق جاويد
راجعه : الدكتور الباز العريني
وزارة التعليم العالي
١٠٠٠ كتاب

الألف كتاب

٦٢٣

ميلاد العصور الوسطى

٣٩٥ – ٨١٤

تأليف

ه. سانت ل. ب. موس

ترجمة

عبد العزيز توفيق جاويد

راجعه

الدكتور السيد الباز العريني

١٩٦٧

الناشر

عالم الكتب

٣٨ شارع عبد الخالق ثروت - القاهرة

الفصل الحادى عشر

الأوضاع الأوربية

١ - الغزوات الأنجلوسكسونية

إن المدونات التاريخية والسجلات المكتوبة عن تاريخ الجزر البريطانية بين ٤٠٠ و ٥٠٠ للميلاد تكاد تكون معدومة تماماً . فهى حقبة تغشاها الظلمات ، كما تنسدل عليها غمامات أساطير الملك آرثر. على أن ما تم فى السنوات الأخيرة من دراسة إقليمية لأسماء الأماكن، ومن التنقيب عن المساكن والجبانات وعن خطوط الحدود واستحكامات الدفاع الترابية ، والمسح الجوى للأرض وما بذل من جهود لإقامة موازين يعتمد عليها لتحديد تواريخ الفخار والعملة والمصنوعات المعدنية ، قد جمع بين أيدينا من المواد ما يصلح لإعادة تكوين صورة للطريق الذى سلكته طوائف المغيرين المختلفة ، وعن طبيعة استيطانهم ومصير السكان الرومان البريطانيين. وربما أمكن فى النهاية تركيب هذه النتائج على حال يؤلف صورة لهذه القرون المعتمة . على أنه يمكن فى الحين نفسه ملاحظة بعض العوامل الهامة .

وقد تعرض ساحل إنجلترة لتغيرات كبيرة منذ أيام العصور الوسطى[1] . فإن الساحل الشرقى والجنوبى الممتد من مصب نهر فيرث إلى جزيرة ويت ، تناثرت عليه عند ذلك على التعاقب مرتفعات صخرية وعرة ومستنقعات متخلفة عن المد . وكان الدفاع عن الشواطىء الصخرية سهلا ميسوراً ، فلم يكن فيها ما يحتاج إلى حراسة إلا ما يتخلل تلك الصخور من ثغرات تجرى فيها

(١) انظر الخرائط المساحية لبريطانيا الرومانية

مصبات الأنهار ، وأكبر شاهد على ذلك بقايا محطات الإرشاد والقلاع الساحلية التى ترجع إلى العصر الرومانى المتأخر ، وكلها توضح تلك الحقيقة . على أن مناطق المستنقعات الضحلة كانت مفتوحة لزوارق المغيرين . وكان مصب نهر همبر وهو الذى يمتد طويلا إلى الداخل يكوّن منطقة طينية مشبعة بالماء ، كما أن الظروف نفسها كانت تتكرر على معيار أكبر حول منطقة الواش (The wash) حيث امتدت منطقة البطائح حتى وصلت إلى ستامفورد وكمبريدج. « وكان المغير الناهب ... يجد القنوات الراكدة خير معين له على حمل زورقه إلى جوف البلاد ، وكان مستطيعاً أن يتخذ لنفسه على كثير من الجزائر القائمة بالمستنقعات مخيمات يستجم فيها من متاعب القتال ويجمع فيها غنائمه دون أن يكدر عليه أحد صفوه[1] » .

جغرافية بريطانيا

أما فى داخل البلاد فإن لطبيعة الأرض صورة أشد استرعاء للنظر . فإن صرف مياه المستنقعات وإزالة الغابات قد غيرت وجه مناطقها الريفية ، وذلك أن شطراً كبيراً من إنجلترة كانت تغطيه فى عصر الرومان والسكسون غابات كثيفة، على حين أن الوديان غالباً ما كانت مستنقعات لا سبيل إلى اجتيازها . ومن هنا تحكمت طبيعة الأرض وجغرافية البلاد إلى حد كبير فى تاريخ المستوطنات الأولى وتكوين ممالك السكسون. وكان مصب الهمبر الذى تتصل به المستنقعات من الجانبين تحف به من الغرب غابة إلمت (Elmet) ، التى كانت تمتد إلى منحدرات تلال پينين (Pennine) ؛ ومن ثم فإن المصب والمستنقع والغابة كانت تؤلف على هذا الوجه حاجزاً يحول دون الاتصال بين الميدلاند (وسط إنجلترة) والشمال . وكانت منطقة فن (Fen) تفصل بين آنجليا الشرقية وبين المنطقة

---

(١) انظر ج . ا . وليمسون فى : « The Evolution of England » (أكسفورد ١٩٣١) ص ص ٢ – ٤ .

الوسطى ، وذلك مثلما كان نطاق الغابات الكبير الذى يمتد جنوباً بغرب من الفنز (Fens) إلى إبنج ، يعزل إيسكس (Essex) ويحول دون التوغل غرباً . وكانت غابة أندردسويلد (Andredsweald) هى أضخم هذه الغابات وتغطى شقة عريضة من الأرض تمتد فى الواقع بين ونشستر وهاستنجس ، غير تاركة سوى شقة من الأرض لا يتجاوز عرضها بضعة أميال تمتد فيها تلال الساوث داونز (South Downs) محاذية للبحر . ويقول وليمسون إنه : « فى عهد متأخر هو القرن الثامن عشر نفسه ، يوم تم قطع معظم غابات منطقة ويلد ، كان من العسير بلوغ ساحل ساسكس من لندن فى أثناء الشطر الأكبر من السنة[١] » . وفى أقصى الغرب ، كان نطاق الغابات الذى تتبقى منه إلى اليوم غابة كارنبورن تشيس (Carnborne Chase) – يسد الطريق إلى وسط دورست وساوث ثومرست فى وجه المغيرين الزاحفين شمالا من ساوثهامبتون واتر (Southampfon Water) . فإذا لم يغب عن بالنا انتشار المستنقعات والغابات على هذا النحو المذكور ، يتجلى لنا أهمية السدود الترابية مثل بوكرلى دايك (Bokerly Dyke) ، التى كانت تحمى المستوطنات الرومانية البريطانية بمنطقة كارنبورن تشيس . ومع أنه لم يبق من السور المقام بداخل الريف سوى بضعة أميال ، فإنه كان فى تلك الأزمنة يحرس المدخل المؤدى إلى منطقة تحميها من الجهات الأخرى موانع طبيعية .

والحق أن مصائر مختلف الممالك يفسرها موقعها ويحددها إلى حد كبير . فإن ممالك ساسكس وكنت وباسكس وإيست آنجليا حرمت الأهمية السياسية ، وذلك بسبب توقف اتساع رقعتها ، بينما استطاعت نورثمبريا ومرسيا وويسكس بسط رقعتها على حساب البريطانيين الرومان ، فكسبت بذلك اتساعاً فى رقعتها فضلا عن زيادة فى تنوع ثقافتها وسكانها ، وبذا برزت كل منهن على

(١) ج . ا . وليمسون بالموضع السابق .

التعاقب بوصفها أقوى وحدة بإنجلترة فى أثناء القرن السابع والثامن والتاسع. ولكن ويسكس كانت الدولة الوحيدة التى أحرزت تفوقاً سياسياً حقا ، على أن سيادتها تتجاوز بنا مجال هذا الكتاب . أما نورثمبريا فإن الخلافات بين برنيكيا وديرا مزقتها من الداخل ، على الرغم من أنها كانت تضم وهى فى أوج عظمتها شرق اسكتلندة جنوبى نهر فورث وشمال إنجلترة حتى نهر ريبل ونهر يوركشير أوز ، كما أنه حدث أكثر من مرة أن زعماء مرسيا الوثنيين تحدوا ملوكها المسيحيين . ومما عجل باضمحلالها الذى بدأ بقوة فى أثناء القرن الثامن ، غارات النهب المخربة التى قام بها السكندناويون القدماء المسمون أهل الشمال (Northmen) . وكانت مرسيا منذ البداية دولة مختلطة ، فكانت خليطاً من عصابات الحرب والمغامرين الذين ينتمون إلى أصول مختلفة ، كما أنها شغلت المناطق المترامية بالميدلاند الغربية التى كانت مدار نزاع دائم ، والتى لا شك أنها كانت فى أثناء السنوات الأولى من الغزوات مسرحاً لامتزاج الكلت والسكسون ومشهداً للتوفيق بين حضارتيهما . وإذ سيطر عليها من تامويرث ، مركز إنجلترة الجغرافى الواقع على واتلنج ستريت ، زعماء أكفاء قساة أشداء ، فإنها بشرت فى لحظة من اللحظات بقيام تقسيم ثلاثى لإنجلترة يمتد إلى عصور مستقبلة ، وتكون فيه تامويرث فيما يحتمل فضلا عن لتشفيلد ، عاصمة للميدلاند ومستقراً لكرسى الأسقفية بها . وقد انبسط سلطانها فى بعض الفترات على سكان منطقة بيك فى الشمال وعلى سكان تشيتشير وجنوب لانكشير وعلى ورسترشير هويكاس فى الجنوب ، على حين أن الحدود الطويلة التى كانت تفصل بين سكان ركن (Wre kin) وبين ممالك ويلز كان يكملها سد أوفا ، وهذا السد من صنع أوفا أشهر ملوك مرسيا ، وهو الذى تبادل الرسائل مع شرلمان ، كما أنه أهم شخصية بإنجلترة عند نهاية القرن الثامن .

على أن زوال حكم الرومان من إنجلترة ، لا يزال حتى اليوم من أعوص الأسرار التاريخية . وربما جاز لنا أن نذهب إلى أنه متى اجتمعت لنا معلومات أوفى ، فإن ذلك قد يقلل من أهمية التواريخ الفعلية لزوال الحكم الرومانى بهذه الجزيرة سواء حدث ذلك فى ٤٠٧ أو ٤٤٠ م . والراجح أن إعادة استيليكو تنظيم التحصينات الساحلية حوالى نهاية القرن الرابع هى آخر محاولة جدية قامت بها الإمبراطورية للاحتفاظ بولايتها النائية . وتدل الأحوال المماثلة التى سادت بلاد الغالة ، أن الانتقال إلى حكم البرابرة لم يكن حادثة مفردة بل عملية تدريجية تمت رويداً رويدا . ذلك أن ما أصاب الحكومة المركزية من الضعف البطىء أفضى إلى ذيوع الارتباك والفوضى الداخلية بإنجلترة ، وهو وضع دعا أصحاب الأملاك والموظفين المحليين إلى تسليح أتباعهم دفاعاً عن النفس ، كما دعا الأهلين إلى هجران الريف المكشوف والالتجاء إلى المدن المسورة ، ومن المعروف أن هجمات البرابرة الأولى كان يعقبها فى العادة فترة هدوء نسبى يتسرب فيها البرابرة فى هدوء يختلف شدة وضعفاً بحسب الأحوال . وهناك من الدلائل ما يشير إلى حدوث هذه الأحوال فى بريطانيا. فمنذ عام ٢٥٠ للميلاد تعرضت السواحل لغارات النهب من الشرق والغرب ، من قراصنة من السكسون والإرلنديين ، ولم تكن غارات الجرمان فى القرن الخامس إلا القمة التى بلغتها تلك الغارات ، التى كان يعقبها فيما بعد هجرات العائلات إلى البلاد . ومن جهة أخرى لا تعوزنا الشواهد على تداعى الحضارة الرومانية بتلك الجزيرة إلى حد ما ، منذ زمن مبكر يرجع إلى القرن الثالث الميلادى . وآية ذلك تدهور فن البناء وتقنياته . وقد حدث حتى فى الأراضى المنخفضة نفسها ، وهى من المناطق التى اكتملت بها الصبغة الرومانية ، أن اشتداد الشعور بالافتقار إلى الأمن والطمأنينة ، يدل عليه تحصين المدن ، على حين أن ما قام على الساحل السكسونى من قلاع مرتفعة مشيدة من الحجارة ،

يغلب عليها طابع العصور الوسطى ، يؤكد الأخطار التى تعرض لها سكان المناطق الساحلية على الدوام . على أن الضربة القاصمة التى وجهت إلى كيان الحياة البريطانية فى العصر الرومانى ، هى الغارة الضخمة التى حدثت فى ٣٦٧ . فى تلك السنة اجتاحت البلاد قوة مؤلفة من البيكيتيين والسكسون والإرلنديين ، فدمرت دور الضياع ، وألحقت بنظام الزراعة فى إنجلترة من الضرر والأذى ما لا سبيل إلى إصلاحه . ويشهد بخط سيرهم سلسلة متصلة الحلقات من الدور الريفية المحروقة . وأكبر دليل على النتائج الثابتة المترتبة على تلك الغارة أن ما اكتشف من كنوز المال فى المواضع الرومانية المنعزلة، انخفضت قيمتها بعد هذا العهد . ولاشك أن القرن التالى ظل يشهد الاضمحلال يدب فى حضارة الجزيرة متواصلا ، وإن كان ذلك بصورة متقطعة ، فقد هجرت الدور الريفية ، على الرغم من أن معظم المدن المحصنة استمرت فيها الحياة بصورة ما حتى صميم القرن الخامس . وفى المناطق الريفية عادت المتاريس الترابية والمخيمات المنصوبة فوق أعالى التلال (التى ترجع إلى عهد ماقبل الرومان) فاتخذت للمرة الثانية ملتجأ للسكان . وتمخض ضغط الغارات الخارجية والنضال الداخلى ، عن ظهور الزعماء المحليين كما هو الشأن فى جهات أخرى من الإمبراطورية ، وعندئذ يتعرض زحف المغيرين البرابرة فى الجهات المتفرقة لنكسة مؤقتة .

على أنه لا يصح هنا القياس بما يسود القارة الأوربية من أحوال . ذلك أن الأنجلوسكسون كانوا شعباً يختلف اختلافا ملحوظاً عن القبائل الجرمانية ، الذين تعرضت أفكارهم بل حتى لغتهم لتأثيرات بالغة نتيجة لاتصالهم بروما طوال أربعة قرون على امتداد خطى حدود الراين والدانوب . هذا إلى أن بريطانيا التى خربها المغير وسلبها كل نظام ، ما كانت تستطيع أن تقدم للوافدين إليها تلك الآثار الرائعة ، التى تعتبر قواماً صلباً للحياة المتمدينة ،

والتى يصادفونها فى جنوب فرنسا وشمال إيطاليا . هذا إلى أن زعماء السكسون كانوا يفتقرون إلى ذلك الإحساس بالإعجاب الذى استشعره زعيم مثل ألاريك أو ثيودوريك نحو النظم الرومانية ، وإلى براعة كلوفيس فى التلاؤم معها ، وإلى إخلاد الدوقات اللومبارديين إلى حياة المدن . وتشير شذرات من الشواهد المتناثرة إشارات تغشاها الريب إلى ردود أفعالهم إزاء الأقواس المخربة والأعمدة المتبقية عن المبانى الرومانية. إذ أثارت فيهم إحساساً بالخوف والنفور المقترن بالقلق ، فخيل إليهم أنها يكمن بها أشباح من الموتى بل قوى أشد خفاء حتى من الأشباح ، مما يستشعره الإنسان فى القاعات الحجرية والقبور التى ترجع إلى العصور الخالية : وفضلا عن ذلك فإن ما أقامه السكسون من مستقرات كان يتجنب فى العادة المواضع الرومانية . وكأنى بالشعور العام فى مجمله ليس إلا شعور نزلاء هبطوا إقليماً مهجوراً تجرد من معظم سكانه ، وهو أمر تشهد به الأدلة الوفيرة بمقاطعات إنجلترة الشرقية والجنوبية ، التى يظهر أن ما كان لدى الكلت فيها من أسماء أماكن وديانة وعرف قد توارت من الوجود إلى حد كبير عند نهاية القرن السادس . أجل إن جيوبا ويلزية محصورة بين أملاك السكسون كانت توجد فى هذه المنطقة ، حيث تعيش بين الغابات أو وسط المستنقعات ، إما لأن الفاتحين أبقوا عليها ، وإما لأنهم لم يستكشفوها، كما أنه حدث فى روسيا ونورثمبريا وويسكس ، أن السكان السابقين قد توصلوا على التدريج إلى الاتفاق مع المغيرين المنتشرين غرباً ، على الرغم من أن دية البريطانى تقل عن دية السكسونى الذى ينتمى إلى أدنى فئة من الأحرار ، شأنه فى ذلك شأن الغاليين الرومان فى ظل حكم الفرنجة . وهناك سبب آخر يدعونا إلى الظن أن مهارة الصانع البريطانى بمقاطعة كنت وغيرها من المقاطعات لم تفلت من يده نهائياً فى أثناء فوضى الغزو ومحنته وبعدها .

حضارة نورثمبريا

وتبدو أمامنا على أرض القارة الأوربية صورة مماثلة عندما نتأمل التطورات التالية التى ألمت بالممالك الأنجلوسكسونية ، ذلك أن ممارسة طرق الرومان فى الإدارة أسهمت فى نمو الروح الاستبدادية عند زعماء القبائل الجرمانية النازلة بداخل الإمبراطورية[1] ، وشجعت على تطوير تدوين القوانين . وكانت الكنيسة هى التى تقوم بهذه الجزيرة (يعنى بريطانيا) بوظيفة روما وعملها ، وكان لها أثر فى تشكيل النظم الأنجلوسكسونية أقوى من أى أثر آخر . مثال ذلك أن قانون كنت لم يظهر إلا عقب قدوم أوغسطين ، كما أن سلطة كل ملك سكسونى ناجح كانت تدعمها مشورة رجال الكنيسة لديه وتعاونهم معه ، وقد أدركوا أن قيام حكومة مركزية قوية ضرورى لمصالح الكنيسة . ودام الاتصال بين الجزيرة وبين القارة ، ومن ثم بينها وبين المجرى الرئيسى للحضارة ، بفضل رجال الدين إلى حد كبير ، حيث لم تكن للتجارة والدبلوماسية فى تلك الأيام إلا أهمية ضئيلة ، على حين أن الأديرة الكبيرة التى وهبها الملوك الأتقياء الأراضى والضياع ، قامت بدور كبير فى نمو العوامل الإقطاعية التى تتمثل فى ازدياد الاختصاصات المحلية والإعفاء من الأعباء العامة .

ولا شك أن أهم مظهر لفتح بريطانيا على أيدى الإنجليز السكسونيين من وجهة النظر الأوربية ، ما بلغته نورثمبريا فجأة من التفوق الأكيد فى حضارة العالم الغربى على الرغم من أنه كان تفوقا قصير الأمد . ومن المعروف أن بريطانيا زمن الرومان ظلت دائماً تعد معقلا أمامياً للإمبراطورية ، وتعتبر إقليماً متخلفاً متأخراً فى حضارته بالقياس إلى غالة وأسبانيا وإفريقية . ثم تنقطع

(١) انظر ما سبق ص ٧٧ .

صلتها بحاضرة الدولة ومركزها منذ (٤٠٠) ، ثم تدنو الجزيرة شيئاً فشيئا من دائرة وعى روما وبيزنطة . على أن بعثة أوغسطين التبشيرية إلى الجزيرة البريطانية أعادت اتصالها بالقارة ، كما أن عودة الاتحاد بين الدراسات والعلوم الكلتية وبين ما للعلوم فى الغرب من تقاليد أصيلة أورثت نورثمبريا نهضتها فى الفنون والآداب . إذ لم يحدث قبل ذلك ولا بعده أن تبوأ الإنجليز مثل هذه المكانة فى المدنية الأوربية . وبلغ الأمر بتقدمها أن روما نفسها اضطرت أن ترسل فى طلب المخطوطات من المملكة الشمالية ، وهناك يبرز بيده (Bede) أكبر علماء الغرب دون منازع لتفوقه فى كل فروع العلم ، كما أنه من حيث القوة الفكرية الخالصة يسمو محلقا فوق العصر الذى عاش فيه ، على أن ما أصاب نورثمبريا من الاضمحلال ، وما قابل ذلك من ازدياد قوة مرسيا ، قوض الأسس الاقتصادية التى تقوم عليها هذه الثقافة المتألقة ، ثم لم يلبث كل ما تبقى منها أن زال فى أثناء غارات الفيكنج ، يوم نهبت الأديرة الكبرى وأضرمت فيها النيران ؛ ولكن ألكوين ورفاقه حملوا من قبل مشعل إلهامها إلى آخن وتور ، حيث صارت أساساً للنهضة الكارولنجية . ثم سدد جانب من هذا الدين حوالى نهاية القرن التاسع ، بعد أن زال الإرهاب الدانيمركى ، حينما أسهمت مؤثرات من القارة فى زيادة ثروة مدرسة ونشستر العظيمة للتصوير والرسم فى عاصمة مملكة ويسكس الزاهرة . كما أن النماذج المعمارية فى بلاد الراين استوحاها فيما يبدو فن العمارة السكسونى المتأخر ، على الرغم من أن تقاليد الجزيرة البريطانية المتصلة الحلقات ، تستطيع تحدى كل موازنة بينها وبين مختلف أنواع الفن الرومانسكى . وقد زال من الوجود كل أثر لكاتدرئيات درهام وونشستر الفخمة ؛ وكل ما تبقى لنا عن روائع العصر الإنجليزى السكسونى المتأخر ، ما نستشفه عن قلة ضئيلة من الكنائس القروية استخرجت دلالاتها من شواهد هزيلة حوتها تلك الوثائق . على أن تلك البقية

والدلالات كافية لإثارة بعض الأسف فى أنفسنا على زوال كل أثر للطرائق الوطنية تلقاء عمائر البناء الفخمة التى خلفها النورمان والتى كثيراً ما تكون جامدة النمط . وذلك كله متى وازناها بما بقى عن السكسون من نحائت ، وبالفنون الصغرى التى كانت تمارس بإنجلترة فى تلك الأزمان .

٢ — المد الصقلبى

كانت حركة انتشار الصقالبة آخر حركة عنصرية بأوربا ، بلغت ذورتها قبل نهاية العصور المظلمة . وهى عملية لا تقل فى خطورتها بالنسبة لمستقبل السلالات البشرية بالقارة الأوربية عن كل ما سبق وصفه من العمليات ، بما كان لها يوم بلغت أقصى مداها من تأثير على كل الأراضى الواقعة شرق خط يمتد على وجه التقريب من رأس البحر الأدرياتى إلى مصب نهر الإلب ، وتختلف هـذه الحركة عن غزوات وهجرات سائر البرابرة ، مثلما يختلف مد يرتفع دون أن يحس به أحد عن شلال شديد الانحدار، أوعن نهر يتلوى جامعاً بين المنحدرات السريعة والروافد الهادئة . إذ إن أهل ذلك العصر لم يلحظوا تسلل الصقالبة فى هدوء إلى مسرح التاريخ الأوربى . لم يكن عملهم غارة رائعة تقودها شخصيات بارزة شأن غارات القوط أو الوندال . وما كان اندفاعة سريعة انبعثت من آسيا كاندفاعة الهون . وإنما الذى تم هو توسع مطرد قام به عنصر من الفلاحين ، كان يشكل فى بداية الأمر الطبقة الدنيا والأساس الاقتصادى لجماعات يقودها حكام مقاتلون من الجرمان أو الأسيويين ، ولكنها كانت تزداد فى كل يوم عدداً وتمتص فاتحيها ؛ لم يقم بينها تماسك وما كان لها مطمع سياسى ، ولذا كانت تنتزع من هنا إلى هنالك فى المنطقة الممتدة من بحر البلطيق إلى البحر الأدرياتى لخدمة أغراض الخاقانات المستبدين ، وهى مدٌّ طامٍ من السكان طغى على شرق ألمانيا وانساب إلى بلاد اليونان ، وكان